الشعر في السودان

للأستاذ علي العماري

— ٤ —

لم يعد للشعر في العصر الحديث ما كان له في العصور القديمة من سيطرة وقوة وإيحاء، ولم يصبح — كما كان — مرآة صادقة تظهر فيها حياة الأمم، وتخلد فيها مآثرها ومثالبها. ولئن كنا نستطيع أن نستخرج من الشعر الجاهلي — مثلا — صورة صادقة لحياة العرب في باديتهم فنرى فيها مضارب خيامهم، ومعامع حروبهم، وأسراب ظبائهم ونسائهم ونعمهم وشائهم تضطرب في صحرائهم إلى غير ذلك مما حفلت به حياتهم، واصطبغت به معيشتهم، لئن كان ذلك في مقدورنا فإننا لا نستطيع أن ندعي أن أمة من الأمم الحديثة كان شعرها (ديوان حياتها)، ولذلك أسباب كثيرة تختلف باختلاف الأمم.

ولا شك أن من الأسباب القوية في هذا الشأن قصور الشعراء وتقصيرهم، وإن كان ذلك لا يرضي بعض المدارس الحديثة التي ترى أن الشاعر لم يخلق ليكون حاكياً لأحوال المجتمع، وإنما خلق ليرسم للناس صورة نفسه، فالشاعر الذي يودع شعره الأحداث السياسية والاجتماعية ليس بشاعر، إذ أن الشاعر لم يخلق ليكون واعظاً أو مرشداً للجماعات، وإنما خلق — زعموا — للفن وحده، وليرسم نفسه بهذا الفن البديع، فيتحدث عن أفراحها وآلامها، وعن عواطفها ورغباتها، وقد كان لهذا المذهب أثره القوي في ناشئة الشعراء، فرأيناهم لا يكادون يتعدون دائرة خواطرهم الضيقة، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فزوروا على أنفسهم، فأخذوا ينوحون وهم يضحكون، ويشببون تشبيباً عذرياً وهم في اللذات غارقون، وهكذا أرادوا أن يصدقوا فكذبوا، وهربوا من تصوير حياة الجماعة فصوروا أنفسهم مشوهة !.

لهذا ولأسباب أخر فقد الشعر مكانته، ولم يستطع أن يكون سجلا لحياة الجماعة، نستطيع أن نقول هذا في الشعر المصري، ونستطيع أن نقوله في الشعر العراقي، ونستطيع أن نقوله في شعراء الشام والحجاز، ونستطيع أن نقوله في الشعر السوداني، وإن كان هروب الشعراء السودانيين من حياة المجتمع أوضح، وربما اعتذر الشعراء الذين عاشوا في أوائل هذا القرن عن تخلفهم بقول الشاعر:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم ... نطقت، ولكن الرماح أجرت

ولكن ما عذر هؤلاء الشعراء الذين رأوا رماح قومهم تنطق الأخرس، حتى هذه الرماح التي أجرت كان على الشعراء أن يبكوها، وأن يستنهضوها، كما يقول أحدهم.

أنظر إلى السودان إن به شباباً ناهضين ... قعد الزمان بهم وما هم بالشباب القاعدين

غير أن الذي يعزينا أن الشعر العامي لا يزال يحتفظ بقوته في هذا المعنى، فلو هيئ لباحث أن يدرس الشعر العامي وأن يتبين اتجاهاته لظفر بشيء كثير من صور الحياة التي يحياها هؤلاء. ولقد اطلعت على شيء من شعر السودان العامي فرأيت فيه تصويراً دقيقاً لبعض ما يكتنف القوم، وخيل إلي أني لو استطعت أن أظفر بمجموعة من هذا الشعر لتمكنت أن أنقل عنها كل مظاهر الحياة في الريف السوداني.

أما الشعر المعرب فالبون شاسع بينه وبين ما تضطرب به الحياة من شتى المظاهر والاتجاهات ولا سيما في أوائل هذا القرن، فإن الشعراء الذين عاشوا منذ ثلاثين سنة حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة جداً أكثرها احتذاء للشعر القديم في أغراضه، ولكن حين تقدم الزمن، وبدت مظاهر النهضة تأخذ طريقها إلى الحياة، وكانت بقية من هؤلاء الشعراء لا تزال تنعم بنسائم السودان البليلة الرخية، وتشرب من ماء النيل العظيم، لم تجد هذه البقية بداً من أن تشارك ناشئة الشعراء في الحديث عن هذه المظاهر، وإن بقيت من ناحية الأسلوب والمعنى وكثير من الأغراض متشبثة بأذيال القديم. والدارس يلاحظ أن هؤلاء الشعراء كانوا يصلون إلى هذه الأغراض بطرق ملتوية، فكانوا يتخذون المناسبات الدينية والمدائح النبوية سلماً إلى ما يريدون، فينفسون بذلك عن بعض الرغبات المكبوتة في نفوسهم، وإن بقيت أقلامهم بمعزل عن تصوير المجتمع، بل منهم من كان يرى أنه من غير اللائق أن يتحدث الشاعر عن مثالب قومه، ثم تقدم الزمن خطوة أخرى فرأينا الشعراء يدخلون المجتمع من باب أوسع فيتناولونه من نواح كثيرة، أرهفوا آذانهم، وفتحوا أعينهم، لما يحدث أمامهم من خير وشر، فصوروا بعضاً وأمسكوا عن بعض

وكان للتعليم نصيب كبير من عنايتهم ، فلا تفتح مدرسة ، ولا يتخرج فوج جديد من كلية حديثة ، ولا تنشأ فرقة تمثيل إلا قالوا ، وهنأوا البلاد ، وغنوا لهـا الخير والتقدم ، كما كان للغة العربية قدر وفير من اهتمامهم ، وكذلك ألحوا إلحاحات خفيفة إلى بعض ما يسيطر على العقول من خرافات . وهنـا أعتب على شعراء الأمصار عتباً شديداً ، وأرى أنهم أغضوا عن تقاليد غير طيبة كان يجب أن يحاربوها كما حاربتها الحكومة ، وكما حاربتها الأذواق السليمة ، وأهمس في أذن الشاعر الصالح الشيخ عبد الله عبد الرحمن الذي يقول :

سأبلغ جهدي في القصائد حرة   على أن جهد الشعر في الشعب شائع
فروض أؤديها وشكوى أبثها   وما أنا ذو بأس وما أنا طامع

والذي يقول :

خذوها بني أمي قوافي عاتب   عليكم بها (لاعن جفاء ولاصد)
قواف ألقـاها من الوحي صادقـــاً
وأرسلها من حيث تجـدي ولا تجدي

أهمس في أذنه كيف فاته أن يؤدي فروض الشعر في هذه التقاليد ، وكيف لم يرسلها دون أن ينظر أتجدي أو لا تجدي ؟ وأين جهده الذي بلغه في هذا الذي أشير إليه ؟ كما بلغ جهده في نواح أخرى كثيرة .

أليس بعجيب أن يقف الشعراء على الشاطىء ، ويجفلوا عن الخوض في أمور هي القذى في الأعين ، والشجى في الحلوق .

بعد هذا نريد أن نستخرج بعض مظاهر للمجتمع السوداني من دواوين الشعراء ، وأنا أحصر طرفي هنا في ديوانين اثنين ، وبعض مقطوعات أخرى ، وأنا مضطر لهذا ، فمن جهة لم يتهيأ لي أن أحصل على كل الدواوين التي خرجت ، والشعراء لم يساعدوني بإرسال شيء من أشعارهم منذ بدأت أكتب هذا البحث ؛ ومن جهة أخرى لم أجد فيما اطلعت عليه من شعر ما يعينني في هذه الناحية إلا هذان الديوانان ، فالأول ديوان (الطبيعة) للشاعر حمزة الملك ، فإن فيه صوراً صادقة ، من ذلك صورة (الحاويّ) وقد التفت حوله الناس تخدع أبصارهم ، بل خدع الشاعر نفسه حيث يقول :

قد رأيت المحال رأى عيـان   ليس في حاجة إلى برهان
رجل كالرجال جاء بمـــا يـ   ـجز عن فعله بنو الإنسان
يأمر المـــاء بالوقوف فينصا   ع ، وإن شاء لج في الجريان
يضع الشيء في يديك فتلقا   ه على الرغم منك في يدثان

وبعد أن يعدد ألاعيب أخرى من فعل الحاوي ، وهي كلها غريبة عجيبة يقول :

هذه ما نراه أم هو جـــد   ومن الناس أم من الشيطان ؟
زعموا أنه الخـداع ولـكن   كيف في الشيء تخدع العينان؟

ثم ينتقل بعد كل هذا طفرة واحدة ، فيسوق إليك حجة على أن للكون إلهاً فيقول :

أيهـا الملحدون هـذي أمور   من صنيع الجهـال والغلمان
عللوها فإن قدرتم فقولوا   إنه لا إله للأكوان

ونترك هذه الصورة لنأخذ في صورة أخرى حيرت الشاعر أيضاً ، ولعبت بلبه ، وانتهى أمره فيها إلى أن يبقى في حيرته ، تلك هي صورة صاحبة (الودع) . (فأم عباس) قد أنبأته بالغيب وقد وقع ما أنبأته به ، وقد كان ينكر عليها أن تعرف شيئاً من عالم المستقبل ، فراهنها ، ونذر لها نذراً ، ولكنها فازت بالرهان ، واستحقت النذر ، غير أن للشاعر عقلا لا يخضع لهذه الترهات ، وهكذا يحاربين عقله ، وبين الواقع الملموس :

أرت أم عبـــاس أعجوبة   تضل كبير الحجى (بالودع)
وما أم عبـــاس إلا عجـ   ـوز تدق بها نزعة للورع
تجادل أنى أنا جادلتها   كأن هو في فنه قد برع
وتحلف إن لم أنـل ما ترى   فليست تعود (لخط الودع)
فواعجبي كيف نبـــأتها   ووديعاتهـــا بأمور تقع
وواعجبي كيـف في عصرنا   تصح الخرافات في المجتمع
وإن كنت صدقتها ما ادعتـ   ـه فمــا أنا إلا لعقلي تبع
أمـور أرى بعض أسراره   ن صدقاً به من رآه اقتنع
أصـــدق منها صحيحاتها   وليست تجوز على الخـدع
ولكن من الحق أن نترك الـ   ـباب مشاعة للبـــدع

وهكذا لا يصل الشاعر إلى قول فصل في هذا الموضوع ، فيبقى في ظلام دامس يخبط يمنة ويسرة ، ولا يهتدي .

ويتحدث هذا الشاعر من نماذج بشرية رآها في حياته ، فمن فتى كالذئب باسم السن يظهر الإخلاص ويسر الغدر ، ومن شيخ شاب في اللؤم ، وحرم زوجه بألف طلاق ولكنه لا يزال يباشرها ، ومن رجـل يظهر في زي النســاء ويفخر بالقوام

الرشيق، والخد الأسيل، ومن دعى موغل فى كبره، يدعى الجود وهو سليل بيت البخل والشح، ومن جاهل يدعى العلم، وما هو إلا ببغاء تهرف بما لا تعرف، ثم ينتهى به المطاف إلى أن يقول:

تفخر كل منهم أن له ... ألف وجه بين صبح ومساء

وفى قصائده (سافرة) و (لقيط) و (سأم قاتل) و (زميل) صور ناطقة فى المجتمع.

أما الديوان الآخر فهو (الفجر الصادق) للشيخ عبد الله عبد الرحمن، والحق أن صاحب هذا الديوان من المخضرمين فهو يأخذ خير ما فى المدرسة القديمة، ويتناول أشياء كثيرة من المدرسة الحديثة، وفى هذا الديوان مجتمع سودانى، وأهم ما يأخذ القارىء فى هذا الديوان أمران.

عنايته بالتعليم، وهذا الموضوع قد استغرق جزءاً كبيراً منه، فيتحدث عن المدرسة الأهلية، وعن مدرسة الأحفاد، وعن كلية غردون، وعن تكريم البعثات العلمية، وعن يوم التعليم، إلى أشياء كثيرة من هذه الموضوعات.

ونستطيع أن نقول أنه يندر أن يفلت من بين يديه أمر يتعلق بالتعليم دون أن يقول فيه، ومن شعره فى كلية غردون.

لها علينا وإن ضنت بموعود ... قديم عهد وحق غير مجحود
كم خرجت من فتى حلو شمائله ... مشمر الساق فى الأتراب محسود
كأنما الجهل طوفان يحيط بنا ... وهى السفينة قد أوفت على الجودى

يا معهداً طاب ماضيه وحاضره ... لا كان ربعك يوماً غير معهود
لا أنت فى واجب السودان وانية ... ولا مقامك فيها غير محمود
قالوا وفود على أبوابك ازدحمت ... وهل سمعت بعذب غير مورود

وعنايته باللغة العربية، وشعراء السودان يولون هذه الناحية نصيباً من جهودهم، ولكن الشيخ عبد الله صريح كل الصراحة حين يتناول هذا الموضوع. قرأت قصيدة طويلة للشيخ عبد الله البنا عنوانها (دمعة على اللغة العربية) يبكى فيها حاضرها وأشاد بماضيها، وللشيخ عبد الله أبيات كثيرة، يسوقها كلما سنحت له الفرصة، يقول فى قصيدة نبوية:

بنى وطنى أن قت للضاد داعياً ... فإنى أدعو للتى هى أقوم
أرى الضاد فى السودان أمست غريبة ... وأبناؤها أمست لها تتجهم

تولت وما دمع عليها بفائض ... وما أحد منهم لها يتألم
ونبئت بالسودان قوماً تآمروا ... على اللغة الفصحى أساءوا وأجرموا

ويقول عاطباً قومه وعشيرته بعد أن أشاد بجهود مؤتمر الخريجين فى التعليم.

بنى عمنا لبوا النداء فحسبكم ... تنازع مأموم بها وأمام
فلستم بأحياء ولستم أعزة ... إذا الضاد لم يؤذن لها بقيام

وعلى ذكر الخلاف نقول إن صاحب الديوان قد أشار إليه غير مرة، ودعا إلى اتحاد الكلمة، ومن كلماته الرقيقة فى ذلك

أفى الدار مصغ للحديث فسامع ... أم الدار قد سدت عليها المسامع؟
توهمت آيات لها فرقتها ... لستة أعوام وذا العام سابع
وطوفت أستبكى عيون قصائدى ... عليها، وقد تبكى القصيد الفجائع
مشى بين أهليها الخلاف فأصبحوا ... تصدهمو عن كل خير موانع
أرى الدارشبت فى نواح كثيرة ... ولم ينج متبوع ولم ينج تابع
إذا القوم لجوا فى الغواية كلهم ... فقبح مدفوع وقبح دافع

ولا نختم هذا الحديث حتى نشير إلى هذه الصورة التى رسمها الشاعر الشيخ حسيب على حسيب، وهى صورة طالما رأيناها، وألمنا لها:

عجباً أرى المقدام أصبح مذنباً ... يقصى وذا الوجهين أضحى مكرما
إنى عرفت الدهر حتى خانتى ... إياه فاسمع سائلى ثم احكما
إن شئت أن تحيا سعيداً بينهم ... كن تابعاً ما يشتهون معظما
حتى إذا قالوا الظلام أجننا ... والشمس مشرقة، فقل ما أظلما

وهذا شاعر يئس من المجتمع، ونظر إليه نظرة كلها حسرة، وألم، وماله لا يفعل وهو الذى يقول، ونقول معه؟

ماذا أعاتب يا زمان وأتقى ... أهلى أم الأيام أم حسادى؟

ويقول عن قلبه:

ألف الهموم برغمه وألفته ... فغدا بواد والسرور بوادى

ويقول عن أقاربه:

هم مزقوا عرضى الغير جريرة ... وتضوا على بأن يطول سهادى
يسعون فى خفضى وأطلب رفعهم ... شتان بين مرادهم ومرادى

(للحديث بقايا) **على العمارى**

مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمى بأم درمان